مقدمة في قبائل الهون والجرمان: أصولها وتحركاتها نحو الغرب

١. القبائل الجرمانية وبواكير علاقاتها بالرومان:

استوطنتْ القبائل الجرمانية حول بحر البلطيق، وفي حوالي سنة ٥٠٠ق.م تحركتْ من أماكن سكناها باتجاه نهري الراين والدانوب، واستمرتْ حركتها هذه نحو خمسة قرون دون توقف، وكان الرومان خلالها منهمكين في حل مشكلاتهم الداخلية وفي فتوحاتهم الخارجية ، فلمْ يكترثوا كثيراً لهؤلاء الجرمان البعيدين عنهم والذين لا يعرفون عنهم إلّا الشيء القليل.

وقد وضعتْ حملة يوليوس قيصر على بلاد الغال[١]، واحتلاله لها في القرن الأول ق.م، الرومان والجرمان وجهاً لوجه لأول مرّة في التاريخ، وترك لنا يوليوس قيصر وصفاً ممتعاً وانطباعاً شخصياً عن هذه الشعوب، ويمثل وصفه هذا أقدم المعلومات المتوافرة عن القبائل الجرمانية، وردتْ هذه المعلومات في كتابه عن حملته على بلاد الغال الذي نشر في عام ٥١ ق.م. وخلاصتها **"أنهم شعوب رعوية محاربة، مولعون بالصيد والحرب أكثر من ولعهم بالزراعة، يغطون جزءاً صغيراً من أجسادهم بجلود الحيوانات، ويتركون الجزء الأكبر منه عارياً، وهم كرماء ونظيفون يستحمون في الترع والبحيرات بمجموعات كبيرة، وما يملكون من أرض مشاع للقبيلة كلها، ولا يسمح لفرد واحد بامتلاك قطعة خاصة"**.

وبعد مرور قرن ونصف على وصف يوليوس قيصر، جاء كتاب تاكيتوس: الجرمان (Germania) ليعطي تفاصيل أكثر عن حياة الجرمان وعن عاداتهم وطراز معيشتهم وديانتهم ومؤسساتهم السياسية، انهم يتميزون بشعرهم الأحمر أو الأشقر، وعيونهم الزرق، وأجسامهم الضخمة القوية، أنهم مولعون بالحرب والصيد

---

(١) بلاد الغال: تسمية اطلقها الرومان قديماً على تلك المنطقة من أوروبا الغربية التي وصفوها لأول مرةٍ، وتضم المناطق التي تشمل الآن فرنسا وبلجيكا، وهولندا، ومعظم سويسرا، والجزء الألماني الواقع غرب نهر الراين. تَحَدّث قاطنو هذا الإقليم، والمسمون الغاليين، بأشكالاً من السلتية، وهي مجموعة لغوية منها اللغتان الايرلندية والويلزية المعاصرتان. أطلق الرومانيون على بعض الغاليين لقب ذوي الشعر الطويل بسبب عدم حلق رؤوسهم أو لِحاهم.

يبغضون العمل اليدوي والزراعة لذا يتركون هذه للنساء والعبيد، يقاومون البرد والجوع ولكن لا طاقة لهم بتحمل العطش والحر، يحبون الشراب والمقامرة وهم محاربون أولا وقبل كل شيء قوانينهم مجموعة من التقاليد والعادات وهي تختلف من قبيلة الى أخرى والواقع انّ الدافع من وراء تأليف تاكيتوس لكتابه هو توبيخ لمواطنيه الرومان لتدنى مستواهم الخلقي بالمقارنة مع أولئك الجرمان البسطاء حيث الحياة العائلية والزوجية عندهم تمثل نموذجاً للعفة والطهارة والصفاء.

والمجتمعات الجرمانية مجتمعات قبلية التأكيد فيها على رابطة القرابة والدم وليس على رابطة الوطن والمواطنة، وكانت بعض القبائل الجرمانية تتحد مع بعضها البعض فتكون اتحادات قبلية كبرى أو شعوباً، وكان هناك ملوك على رأس كل شعب من تلك الشعوب، وفي البداية لمْ يكن أولئك الملوك سوى زعماء حرب وقادة جيوش، اختيروا من قبل الأحرار وهم خاضعون لارادتهم، ولكن في الوقت الذي دخلتْ فيه الشعوب الجرمانية الى الامبراطورية الرومانية تطورتْ بحيث أصبح هناك اتجاه بينهم لانتخاب القائد أو الزعيم من عائلة معينة، وهكذا فان الشعوب الجرمانية أخذتْ بالنظام الملكي ومبدأ الوراثة في الحكم.

وكانت القبائل الجرمانية خلال القرون الثلاثة التي سبقتْ الامبراطورية الرومانية في الغرب في حركة مستمرة، فهي أبعد ما تكون عن الاستقرار ولعله من غير الصواب الاعتقاد بان الامبراطورية الرومانية واجهت خطراً جرمانيا موحداً والواقع انّ الحروب بين الشعوب الجرمانية نفسها والخلافات القبلية مكنتْ الحكومة الرومانية لفترة طويلة من استخدام أحد القبائل ضد الأخرى وتحريك زعيم ضد آخر والاحتفاظ بنوع من السيطرة والنفوذ عليهم جميعاً.

ونتيجة لتلك القرون الطويلة من الجوار صار العديد من الجرمان ملمين بطريقة الحياة الرومانية شغوفين بها. وقد أسعف الحظ بعضهم فعبروا الحدود الرومانية أفراداً وجماعات ليصبحوا مزارعين في الحقول الرومانية أو ليخدموا جنوداً في الجيش الامبراطوري. وفي حالات كثيرة سمح لقبيلة بكاملها باجتياز

الحدود والاستيطان ضمن حدود الامبراطورية كحليفة، وقد انيطت بها مهمة الدفاع عن الحدود في المنطقة التي استقرتْ فيها ضد بقية القبائل الجرمانية واعتبرت حليفة.

وقبل سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب بوقت طويل، صارت الفرق الرومانية مكونة في معظمها من جنود جرمان، وكان أولئك الجنود يكنون الكثير من الاخلاص والولاء للامبراطور والاحترام للامبراطورية، وشاركهم هذا أولئك الجرمان الذين لمْ يسعفهم الحظ في اجتياز حدود الامبراطورية وفي العيش في كنفها. لقد كانت الامبراطورية الرومانية والارض الرومانية جزءاً جميلا من العالم الذي يعرفه الجرمان ويعجبون به. ان مؤسساتها ومدنها الجميلة وحقولها الخصبة تفوق ما سواها ممّا يعرفون ولمْ تكن طموحاتهم تتعدى ان يصبحوا جزءاً منها مستقرين بصورة سليمة ضمن حدودها ولم تكن لدى الزعماء والقادة الجرمان أمنية أعلى من شرف الخدمة في جيش الامبراطور وتحت قيادته.

الخلاصة انّ شعور الاحترام للامبراطورية والامبراطور كان عميقاً عند الشعوب الجرمانية، وبقي كذلك حتى بعد سقوط الامبراطورية.

وما انْ حلّتْ نهاية القرن الرابع الّا وكان هناك عدد كبير من الجرمان قد اجتازوا الحدود الرومانية بصورة سلمية واستقروا ضمن حدود الامبراطورية كما وكان هناك عدد أكبر ينتظر الفرصة المواتية للقيام بمثل هذا الاجتياز. ولعله كان من المحتمل استمرار عملية التسلل السلمي هذه الى ما لانهاية دون عنف. ولكن حدث أمران غيرا هذا الاتجاه وبدلا الطبيعة السلمية للعلاقات بين الرومان والجرمان وأول هذين الحديثين الضغط الذي تعرضت له القبائل الجرمانية نفسها من جراء زحف قبائل الهون الآسيوية نحو أراضيها الأمر الذي اضطرها إلى التوغل في الأراضي الرومانية، وثانيهما تزايد ضعف الإمبراطورية الرومانية وافتضاح أمر هذا الضعف أمام القبائل الجرمانية الأمر الذي شجعها على الاستفادة من هذه الفرصة المتاحة أمامها .

٢. قبائل الهون: اصولها وتحركاتها نحو الغرب:

وهي من القبائل الآسيوية التي تسكن منطقة السهوب الآسيوية بين جبال الطاى والأورال ويتميز الهون عن الجرمان والرومان برؤوسهم المستديرة وأنوفهم المسطحة وعيونهم الغائرة وشعرهم الداكن الأسود وكانوا يعتمدون على الرعي في معيشتهم، يتبعون العشب جنوباً في الشتاء وشمالاً في الصيف وتمتد مناطق تجوالهم مسافة الف ميل أحياناً. والهون ماهرون جداً في ركوب الخيل وفي القتال والطعن من على ظهورها. وأكسبهم ذلك تفوقاً على خصومهم.

ولمّا كانت معيشة الهون تعتمد على الرعي فانها كانت مهددة بالجفاف من وقت لآخر. ومتى ما فشلتْ مراعيهم في سد حاجاتهم اندفع الهون بسرعة وعنف في مهاجمة من يجاورهم من الشعوب وكانت مهارتهم المنقطعة النظير في ركوب الخيل وقدرتهم الفائقة على تحمل المشاق والجوع والعطش خير معين لهم لتحقيق ما يبتغون وأغلب الظن انّ أواسط آسيا عانت فترة من الجفاف طويلة امتدت على مدى أربعة قرون من القرن الثاني قبل الميلاد الى القرن الثاني بعد الميلاد.

بدأ الهون تحركهم من مناطقهم الاصلية في منتصف القرن الأول قبل الميلاد متجهين في بداية الأمر نحو الحدود الصينية ولكن قدرة أباطرة الأسرة الهانية في الصين وقوّة الاستحكامات الممتدة من أطراف شمال الصين الى تركستان الشرقية دفعت الهون بعيداً وأنقذتْ الصين من دمار محتم. وبفشل محاولاتهم للتقدم شرقاً تحولت قبائل الهون نحو الغرب فتوغلتْ في روسيا واستمرتْ عملية هذا التوغل طيلة القرنين الأول والثاني للميلاد، وما انْ حل القرن الثالث الّا وكانت قبائل الهون قد أتمت طرد شعوب سكان السهوب في جنوب روسيا ووصلت جحافل الهون الى أوروبا في القرن الرابع فاكتسحوا مملكة الغوط الشرقيين في جنوب روسيا واخضعوا قبائلها لهيمنتهم سنين طويلة. ثم واصل الهون زحفهم غرباً وهاجموا الغوط الغربيين والوندال، الأمر الذي دفع هؤلاء الى الفرار والاحتماء بحدود

الامبراطورية الرومانية. وفجّر هذا الزحف الأخير الأزمة بين الغوط الغربيين والامبراطورية الرومانية.

٣. معركة أدرنة وأهميتها:

لجأ الغوط الغربيون عام ٣٧٦م الى الحدود الرومانية ملتمسين من الامبراطور فالانز السماح لهم بعبور نهر الدانوب والاستقرار في الأرض الرومانية. واستجاب الامبراطور لطلبهم وسمح لهم بالعبور. وربما كان يرى ان هذا في صالح الامبراطورية حيث انهم سيكونون حاجزاً بينها وبين قبائل الهون في حالة استمرار تقدم هذه القبائل باتجاه الغرب.

استقر الغوط الغربيون في دالماشيا وتراقيا وسرعان ما نشب خلاف بينهم وبين الموظفين الرومانيين الذين تعسفوا في معاملتهم، واحتجزوا عنهم المواد الغذائية وفرضوا قيوداً على تحركاتهم، وتطور الخلاف الى حرب سافرة واسرع الامبراطور فالانز على رأس قوّة لـمْ تُعد اعداداً ملائماً لمواجهة الموقف وتأديب الغوط الغربيين وحدثت معركة أدرنة عام ٣٧٨م هزم فيها الرومان هزيمة ساحقة وقتل فيها الامبراطور نفسه.

تمثل معركة أدرنة أول انتصار كبير حققه الجرمان على الجيش الروماني وقد أظهرتْ المعركة تفوق سلاح الفرسان السريع الحركة، الذي كان الأساس في جيش الغوط الغربيين على سلاح فرق المشاة التقليدية الرومانية.

لم يغادر الغوط الغربيون الأرض الرومانية بعد هذه المعركة، كما وأخذ الجرمان بشكل عام منذ هذا التأريخ يقيمون ممالكهم ضمن حدود الامبراطورية واختلف المؤرخون في تقديرهم لأهمية معركة أدرنة. فقد اعتبرها البعض من المعارك الحاسمة في التاريخ وقال عنها انها نقطة تحول في تاريخ الإمبراطورية الرومانية والشعوب الجرمانية على حدٍ سواء. وذهب فريق إلى اعتبار سنة ٣٧٨م نهاية للعصور القديمة وبداية للعصور الوسطى. في حين يرى البعض الآخر من

المؤرخين ان معركة أدرنة لا تعدو انْ تكون تمرداً للجيش الغوطي الذي هو في الواقع جزءاً من الجيش الروماني أضف الى هذا انّ آثار الهزيمة كان مقدراً لها انْ تزول في عهد إمبراطور قوي وحكيم ومن حسن حظ الامبراطورية الرومانية ان الامبراطور ثيودوسيوس الاول (٣٧٩-٣٩٥)م الذي خلف الامبراطور القتيل، كان ممّن تتوفر فيهم هذه الصفات. فقد عقد هذا الامبراطور اتفاقية جديدة مع الغوط الغربيين سمح لهم بمقتضاها بالبقاء في الارض الرومانية كحلفاء Foederati وعفاهم من الضرائب وتعهدوا له مقابل هذا بالخدمة في الجيش الروماني.

ولكن ثيودوسيوس كان آخر الأباطرة الأقوياء وقد خلفه ولداه الضعيفان موتوريوس الذي حكم الأقاليم الغربية من الامبراطورية، واركاديوس الذي حكم الأقاليم الشرقية منها، وكان الغوط الغربيون قد جددوا تمردهم على السلطة الرومانية، وقد أغراهم ضعف الإمبراطورية بذلك، ولمْ يتورع ملكهم الأريك Alaric عن مهاجمة ايطاليا.

٤. الغوط الغربيون ومملكتهم:

عاش الغوط الغربيون في الأرض الرومانية في عهد الامبراطور ثيودوسيوس كحلفاء للامبراطورية وقد اطلق على ثيودسيوس من جراء ذلك لقب صديق الغوط، ولكن الغوط استغلوا ضعف هونوريوس فعادوا الى مهاجمة الأقاليم الرومانية وكانوا هذه المرّة تحت قيادة ملكهم الاريك. وحاصرت جيوش الامبراطورية الشرقية والغربية قوات الأريك في البلقان، وكادت ان تستأصلها ولكن امبراطور الشرق الضعيف اركاديوس أرسل أوامره الى القادة بالانسحاب والعودة الى القسطنطينية وايطاليا دون الحاق أي ضرر بالغوط الذين سماهم أصدقاء الامبراطورية المخلصين. وما انْ اطمان الأريك الى وضعه حتى جدد تهديده للامبراطورية ، واتجه هذه المرّة الى ايطاليا نفسها وتهيأ للرومان في هذا الوقت قائد جرماني مخلص وقدير هو ستيليكو الذي استطاع انْ يدحر الأريك في مواقع عدّة في عامي ٤٠٢ و٤٠٣م.

وفي هذه الظروف، حيث كانت الحكومة الرومانية بحاجة إلى المزيد من القوات للدفاع عن ايطاليا اضطرتْ الى سحب قواتها من بلاد الغال ومن بريطانيا واسبانيا الأمر الذي كشف حدود هذه الأقاليم أمام القبائل الجرمانية. وبعد عام ٤٠٦م بمدة قصيرة اكتسحتْ القبائل الجرمانية بلاد الغال واسبانيا وشمال افريقيا، وهكذا أخذتْ الامبراطورية الرومانية في الغرب تتداعي بسرعة، وفي هذا الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية بأمس الحاجة إلى خدمات القائد ستيليكو أوغر الحاسدون والواشون صدر الامبراوطور عليه فأعدمه. ولمْ يكتف بذلك بل نكل بجميع أتباعه وأعوانه الأمر الذي دفع بالعديد منهم اللجوء إلى الأريك للاحتماء به.

استغل الأريك فرصة غياب ستيليكو عن الميدان فتقدم الى روما بعد شهرين فقط من مقتله وضرب حصار على المدينة في عام ٤٠٨م، وعزم على اماتتها جوعاً لاجبارها على التسليم وأخيراً قبل رفع الحصار عنها بعد انْ دفعتْ له مبالغ كبيرة من المال ذهباً وفضة وأطنانا من التوابل، وأعاد الأريك في عام ٤١٠ حصار روما، وفي ليلة ٢٤ آب فُتحتْ له أبواب المدينة فدخلها واستباحها لمدّة ثلاثة أيام وهزّ هذا الحدث العالم الروماني، ومع انّ الخراب الذي لحق بروما من جراء هذا الاحتلال لمْ يكن جسيماً فان احتلالها كان ضربة عنيفة لمعنويات الرومان ولكرامتهم.

قاد الاريك قومه بعد ذلك نحو الجنوب بغية عبور البحر الى افريقيا مخرباً في طريقه الى صقليا كل شيء، وأخيراً عندما وصل البحر حطمتْ عاصفة هوجاء اسطوله فاضطر العودة الى الشمال ومات فجأة في أواخر عام ٤١٠م، ودفن في قعر أحد الأنهر مع جزء من خزائنه وقتل أتباعه جميع العبيد الذين اشتركوا في عملية الدفن كي يبقى القبر مجهولاً ويُحتفظ بسرية الموقع.

خلف الأريك أخوه اثولف Athulf الذي اراد انْ يجد موطناً لقومه في بلاد الغال وكان الوندال قد سبقوه اليها وعاثوا فيها فساداً وكانت الفوضى سائدة والعصابات منتشرة في كل مكان. اتجه اثولف جنوباً فاحتل طولوز ويوردو ودفعت

المجاعة في بلاد الغال الغوط الغربيين للذهاب الى اسبانيا فاغتيل اثولف عام ٤١٥م، وجاء بعده ولده وليا Wallia واراد هذا عبور البحر الى افريقيا ولكن اسطوله تحطم في قادش واستأصل جيش الوندال في اسبانيا وحصر الوندال في جزء ضيق يقع في الشمال الغربي من هذه البلاد واخيراً استقر الغوط الغربيون في منطقة أوكتين من بلاد الغال وامتدت منطقة نفوذهم من طولوز حتى المحيط الاطلسي وسكناهم في هذا الموقع جعلهم يعيشون بين أكثرية من السكان الغاليين والرومان. وقد تأثروا بالحضارة الرومانية فأسسوا لهم نظاماً ادارياً على غرار النظام الروماني ثم اكتسحوا اسبانيا مرّة أخرى ودحروا الوندال فاضطر هؤلاء الى مغادرة اسبانيا عام ٤٢٩م الى شمال افريقيا[٢].

بلغت قوّة الغوط الغربيين أقصاها في عهد ملكهم ارك Euric وكان هناك احتمال لازدهار هذه الدولة ولاستمرارها. وقد شيد ارك له بلاطاً فخماً في طولوز على غرار بلاط الأباطرة الرومان واعترف به الفرنجة والبرغنديون والسكسون وفي عهده وضعت أقدم القوانين الجرمانية المدونة. توفى ارك عام ٤٨٥ وبعد وفاته بجيل واحد فقط تمزقتْ دولة الغوط الغربيين واستولى الفرنجة على أوكتين عام ٥٠٧م وانتزع منهم الغوط الشرقيون منطقة بروفنس وبقى نفوذهم في اسبانيا الى عام ٧١١م حيث انتزعها منهم العرب المسلمون.

٥. نهاية الامبراطورية الرومانية في الغرب:

تجدد خطر الهون على اوروبا بعد أنْ أصبح أتيلا Attila ملكاً عليهم وكان هذا ملكاً كفوءاً ولكنه كان مخيفاً ومرعباً. وقد أطلق عليه معاصروه **"نقمة الله"** غزا اتيلا بلاد البلقان وأجبر امبراطور القسطنطينية على دفع ضريبة له. وفي عام ٤٥١م وصل أتيلا بلاد الغال وتحالفتْ الشعوب الجرمانية والرومان محاولة وقف تقدمه وحالفهم الحظ فدُحِرَ أتيلا عند شالون سنة ٤٥١م واتجه بعد هذه الهزيمة نحو

(٢) عبرت قبائل الوندال نهر الراين عام ٤٠٦م متوجهة الى بلاد الغال وبسبب ضغط الفرنجة هناك دفعهم للتوجه الى اسبانيا ولكنهم دحروا فيها على يد الغوط الغربيين فتوجهوا الى شمال أفريقيا عام ٤٢٩.

ايطاليا حيث خرج له البابا ليو الكبير وأقنعه بالعدول عن مهاجمة روما. وتوفى أتيلا في عام ٤٥٣م وانهارتْ مملكته ورجع قومه الى آسيا.

وهكذا ما انْ حلّ منتصف القرن الخامس حتى كانت الامبراطورية الرومانية في الغرب قد فقدتْ معظم أقاليمها في اوروبا وشمال افريقيا. ولعل خروج البابا وعدم خروج الامبراطور، لمقابلة أتيلا يوفر الدليل القاطع لفقدان الحكومة الإمبراطورية منزلتها السابقة وهيبتها والسنوات الأخيرة من حياتها تميزتْ باعتلاء عدد من الأباطرة الضعاف لعرشها. ولمْ يكن لأولئك الأباطرة من السلطة سوى الأسم. فقد انحصرتْ السلطة الفعلية بيد قادة الجيش الجرماني. وجاءتْ النهاية في عام ٤٧٦م حيث قام أحد القادة العسكريين الجرمان يدعى أود واكر Odoaker (٤٣٣-٤٩٣)، الذي كانت له الهيمنة على روما، بعزل الامبراطور رومولوس أوغسطس ونفيه الى جنوب ايطاليا دون انْ يعين خلفاً له، وأرسل شارة الامبراطورية الى القسطنطينية.